

الثورة الخضراء في شعر محمد مصطفى الغماري

لطرشي الطيب،

قسم اللغة العربية، جامعة زيان عاشور الجلفة

توجيهات الشاعر الخضراء ومميزاتها:

فالشاعر اتخذ الاسم الانثوي (خضراء) رمزا لفكرته الموضوعية وهو شئ معروف في عالم الشعراء، فالظاهرة تكاد تكون واسعة الانتشار زمانيا ومكانيا، في الشعر العاطفي والسياسي على السواء وفي الشعر العربي، وفي غيره من الشعر العالمي .

فهذا الظاهرة لها اسباب متعددة، فهي عند شعراء الصوفية كما عند الشعراء العذريين كما عند الشعراء السياسيين .

وربما أن الغماري لجأ الى المرأة لتكون قناعا لفكرته فهي راسخة في الوجدان الانساني على انها رمز العطاء والخصب والنماء، وغير بعيد ان الشاعر يريد ان يلقي هذه الظلال على عقيدته ذاتها، وهي حقا تجيد هذه الصفات، وتمثلها اصدق تمثيل، وبذلك يريد الشاعر ان يهرب من الاسلوب المباشر التقريري .

وهذا ما يؤدينا الى القول بان ذاتية الشاعر لا تتناقض مع موضوعيته ومن خلال استعراضنا لبعض قصائده كقصيدة قيس وليلى وهيلانا. نلاحظ الصوت الثالث سواء تمثل بنا او بمعادل آخر يوظفه الشاعر للتأثير فب وجداننا، هذا الصوت يتوسط بيننا وبين الشاعر في كثير من قصائده فيذهب بنا الى سنفونية الوجود التي لا يرق وترها، الا في صحبة الاوتار الاخرى، فمثلا وجدنا انفسنا حضورا بين قيس وليلى شاهدين على نجواهم وتكويننا نار البعد او دغدغات اللقاء، نجد انفسنا كذلك في القصيدة الثانية حيث الشاعر ومحبوبته ونحن الصوت الثالث الذي يأسى للشاعر، كما لو انه يأسى لكيانه أو وجوده، ومن المعلوم ان هذه الثلاثية المتجاوبة تخفف من صوت (الانا) وتقربنا الى ابهى صور الفن وادواته الحديثة .

ففكرة اتحاد الذات بلاموضوع ذده تملك على الشاعر اقطار تفكيره وتهجر على في اكثر لحظات تامله أو انفتاحه على تسجيل تجربته كما نلاحظ في هذا النموذج .

أشاهد فيك رموز الضحى

كمشكاة نور تضيء الدروب

وما اروع الشوق عند اللقاء

واروع من شوقنا ان ندوب

أراك ، فتخضر الحب رؤيا
وأطوي اليك حدود الزمان
بنهر المعاناة : يمتد نهرا
حبيبي اليك ويطوى المكان

في خضم هذه المشاهدة الرومانسية يستدرجنا الشاعر الى الاعجاب بمعشوقته ثم ندرك اننا امام فكرة تستهويننا مفرداتها مرورا بالصور والاطار العاطفي والفكري ، وحين النظر في المفردات : الضحى ، النور، يضيئ، في بيت شعري واحد ، انه عنصر واحد من العناصر المكونة للغة الشعرية تنسجم في الاطار الفكري لهذه العقيدة فكلمة (مشكاة) تشير الى المشكاة القرآنية وهذا ما نفهمه من خلال صلة الاضواء بالفكر « الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاج كأنها كزكب دري ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار نور على نور ... » .

ولقد استعان الشاعر بالصوفية وداب في حناياها وسبح في التجارب المعاشة لبعض الشعراء، او ما سمي بالتجارب الصوفية في الشعر والسلوك فاضاف اليها عمقا في اكثر من بعد خاصة في درجة الذوبان نفسها ومعادله اللغوي والتصويري وسمو روحها وتوجهها ، فنجد في ديوانه قراءة في اية السيف يتطرق الى هذا النفحات الصوفية .

وتدائينا ، كما الهمس

تنائينا ، كما الحلم

اتحدنا ...

شربنا ولحظات العمر

عشناها انعتاقات حبيبة

فالمسنا طيفها الاصحونا

صحوة تبعث في الجذب خصوبة

صحوة جلت عن السكر

وجلت عن مراياه الرتيبة

لم نعاني العطش المر

ولم نجرع لهيبته!

فكلمات (الاتحاد ، الطيف ، الصحو ، السكر) وظفت في عمق وشفافية ، فالصحوة هنا ليس كمثلها صحوة ابعده من صحو بعد سكر ! وليست خمرتها تلك الخمر المعهودة ، ولا حتى خمرة

الصوفيين التي تعد اداة للوصول فهي خمرة « ليس فيها غول ، ولا هم ينزفون » كما جاء في التعبير القراني فنجد انفسنا امام حياة جديدة من خلال فكرة لها ابعادها الحياتية في اغوار الزمن نعبر عنها بادواتنا الخاصة .

لقد كانت التجربة الغمارية في هذا الاتجاه محط أنظار بعض الباحثين أمثال الدكتور أبي القاسم سعد الله⁴²³ والدكتور محمد ناصر⁴²⁴ والباحث الشاب يحيوي الطاهر⁴²⁵، فتطرقوا إلى ما أضافه الغماري في التجربة الصوفية في مجال اللغة الشفافة ، والصور ذات العلاقات غير المنطقية وغير المألوفة، زيادة على الموقف من الوجود وصلته بالموجود الكبير بيد أن الأستاذ : عبد العالي رزاق يذهب مذهباً مغايراً ويرى بان التجربة الصوفية الغمارية أبعدت الشاعر عن علاج الواقع والمجتمع الذي يعيش فيه، وجعلته يضرب في مهامه بعيدة في الزمان والمكان⁴²⁶ .

ومهما يكن فالتجربة الصوفية رافد عظيم من روافد الشعر القديم والحديث فقد أفاد منه شعراء محدثون اشتقوا الرمزية الغربية واستفادوا من عوالمها الكثيرة ، وهذا لا يعني إطلاقاً تركية للرمزية المذهبية ، ولكننا أنصفناها لانجازاتها في ميدان العلاقات اللغوية الخاصة.

زيادة على ان الغماري لم يستعن بالتجربة الصوفية كلية ، بل استقى منها اللغة والصور وبعض التوجهات ، وكان يرفضها سلوكاً حياتياً ويقرب للإسلام القرآني لا الإسلام الصوفي ،وقد قارن الصوفية بالماركسية والمادية والعلمانية التي تقف على سبيل الحل الإسلامي ويشير إلى هؤلاء جميعاً جهلهم للإسلام ، كما هاجم الصوفية التي نسبوه إليها ظلماً وزوراً:

أقسمت بالجرح المحدد بالشعارات الداعية

باسم الطرفية والحقيقية والوصلات الجلية!⁴²⁷

وإذا كانت صوفية يقول :

ويسعدني في دفعة النور إنني

أرى الله في كل الوجود ... وألمح⁴²⁸

أو تقول

أنا أهواك ... فانشر الله ظلاً

423 - د/ أبو القاسم سعد الله ، تجارب في الادب والرحلة ، انظر ص 149.

424 -د/ محمد ناصر ، مقد الطبعة الثانية من اسرار الغربية ،انظر ، ص21.

425 -الطاهر يحيوي ،البعد الفني والفكري عند الشاعر مصطفى الغماري ، انظر ص 131.

426 -عبد العالي رزاق ، جريدة الجمهورية ، العدد 4120 ، 1978/12/11 ، الجزائر.

427 - مصطفى الغماري ، نقش على ذاكرة الزمن ، ص 81.

428 - مصطفى الغماري ، اسرار الغربية ، ص 8.

وفي أكثر من صورة تبدو لنا صورة المحب الورع ، الذي يعيش تجربته حنيبا تنجز عنها معاناة صادقة .
وكما استعان الشاعر بالصوفيين نجده استعان بالعذريين ، فاخذ عنهم اللغة والأماكن التي يرددونها في أشعارهم
فجده في قصيدة (أنا المجنون يا ليلي!) يذكر جبل التوباد ووادي القرى وهذا الذكر بطبيعة الحال ممزوج
بالشوق والحرمان

أنا المقرور يا ليلي ! ... فهل لي واحة بكر؟
أنا الظمان يا ليلي وأنت الماء والجمر!
شهودي في الهوى شوقا وأنت وحبنا الطهر
وقرآن الهوى أبدا حدائق في دمي خضر⁴³⁰ .

فالملاحظ بان الشاعر له معشوقتان نهيم بالأولى في بداية الأمر ثم ندرك ليلاه الثانية وهي العقيدة الإسلامية ،
فاللغة الشعرية تشدنا إلى الأولى بينما المستوى الثاني من تأملنا يجرنا إلى ليلي الثانية ، وإذا تعمقنا في حنايا اللغة
 نجد الشاعر يشعر بالبرد والظمأ على عكس ليلاه ، فهي جمر وماء مما يدل على الحواجز الموضوعية في وجه
المبادئ الإسلامية ، ورغم هذه الحواجز فالشاعر يتطلع إلى الواقع المعاش ، أمام الإسلام الذي يريده الصليب ،
والإسلام الذي يريده الحاخام ، وكلاهما مرفوض في نظره فهو يتطلع إلى الإسلام التام ..

ولعل التضاد اللغوي الذي اعتمده الشاعر يعكس هذا الفرق بين الواقع الذي يحياه الشاعر ، وبين الواقع الحلم
الذي يحس به ويتفراه بعدا حاضرا وكائنا ملموسا ، والطريق في هذا التضاد اللغوي انه يدل على حس شفيف
بالعلاقات اللغوية ، فالنار والجمر متضادان وهما ضدان لاسمين سابقين، وهما المقرور والظمان ، بل إن هذا
النوع من التضاد اللغوي ينحو منحى رمزيا يجعلك أمام دلالات وسمات أخرى للفظتي الجمرة والماء .
وفي غالبية الأحيان ، يلجا الشاعر إلى توظيف هذا التضاد اللغوي في إظهار مميزات المفارقة المعنوية التي
يريد تشخيصها، وهو تضاد قوي إلى حد بعيد .

ويستمر الشاعر في حنينه ليولد لهذا اللقاء معنا وذوقا فنيا فيكون طعم الماء للظمأ وشعاع الجمرة للمقرور وهذا
ما نجده في قصيدته خضراء تشرق من طهران .

عنيت جرحك يا خضراء ميعادا
متى اللقاء تجوب الدرب أعيادا
غنيت جرحك... لأصبحى بمقترب
من.. ولاهمسك العذري ميعادا
قلبي على بعدها يخضل زنبقه
نشوى .. ويحمل من أسرارها زادا⁴³¹

429 - المصدر نفسه، ص 50.

430 - مصطفى الغماري ، اسرار الغربة ، ص 108

431 - مصطفى الغماري ، خضراء تشرق من طهران ، ص 15

وبمجرد قراءة هذه الأبيات نجد أنفسنا أما من ليلي الثانية ، وأمام بعد اللقاء الذي يزيد الشاعر حلاقة ورغم ذلك فإنه يعرف السر الذي يغذيه ويقربه منها وكأنه يلماها في دمه وشرايينه ، فيجعلنا نحس بالقدرة التصويرية والصلة القوية بين التصوير والفكرة إلى حد تتجسد الصورة في مفردة من خلال موضعها في التركيب اللغوي .

فكيف يغني الشاعر جرحها ميعادا؟

وكيف يجوب اللقاء الدرب أعيادا ؟

وكيف يخضل بعدها زنبقة ؟

إنها الصورة التي يمكن أن نستعير لها التعبير النحوي (الحال الجامدة المؤولة بالمشتق) الذي يقوم مقام التشبيه البليغ الموجز الموحى وهذه ظاهرة تقريرية مطردة في شعر الغماري كما سنرى .

كما ان الشاعر يتميز برحيله الدائب وما يحتويه من معاناة وهي سمة من سمات هذا المحب ، فاعتنى بمفردات هذا السفر الذي افترن باليابسة ، فجاءت لغته واقعية ملتصقة بالطبيعة وهذا ما أشار إليه الدكتور سعد الله في مجموعة من المفردات التي يراها تتماوج في شعر الغماري مثل (السفن ، البحار ، الطفو ، الرسوب ، الموج ، الجزر ، الشواطئ...) ⁴³².

فالشاعر يخفي همه من خلال سفره الدائم ، فهو مفعم بالهزات ورغم ذلك فالشاعر صابر بالاستعانة بالنداءات الربانية ومسيرة الأنبياء وسعادة الأمة التي تقتدي بالإسلام ، وهذا ما نجده في إسرار الغربة .

لأجلك يا كروم الله... أهوى الشوك احترق

لأجلك تأكل الأسفار خطوي فالخطى رهق

ولم أسأم...

ولم يصلب على شفتي الهوى الالاق

وما انكفأت هموم الأمس عني...يا احبابي ⁴³³

فلسفة الحياة تعني للشاعر أن الحياة وما فيها مصنوعة من احل إرضاء الخالق « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » ⁴³⁴

فهذا السفر يهدف إلى مرضاة الله والوعد الحق الذي لوحت به السماء بكل جمال رزقتها وبكل ما وراءها بهاء أعظم ، ولن يقف حتى يدرك اللحم الغائب بكل أبعاده ، ولهذا فهو يعد محبوبته بالا تنتظر والأمل مقتديا تتغزل الضياء في الأسطورة اليونانية ارتقابا بعودة المحبوب .

ليلي ... وأجمل نار الهم في وتري

إليك ... اختص الأيام فانتظري (...) ⁴³⁵

وفي خضم السفر نجد الشاعر يضحى من اجل المحبوب

432 - د/ أبو القاسم سعد الله ، تجارب في الأدب والرحلة ، انظر ص 150 .

433 - مصطفى الغماري ، اسرار الغربة ، ص 94

434 -سورة الانعام اية 162 .

435 - مصطفى الغماري ، اغنيات الورد والنار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط 1980 ، ص 192 .

فدى عينيك يا خضراء رقص
أجوب هواه في سري وجهري
ألم جراحه حلما وتهوى
أهازيجي خطأ غده الأغر⁴³⁶

فألم الشاعر يتحول إلى حلم يراوده في السر والعلانية، ويجعله يتطلع بكل ثقة إلى غد أفضل ، ثم ينتقل الشاعر إلى مناجاة ربه تقربا وطمعا في رضاه.

وتعالى الهتاف .. لبيك
رباه .. سنفنى ليزهر القران
طال يارب في سبيلك ترحال
وأوحنا له القربان⁴³⁷

مفردة " سبيلك" تدل على التضحية والاحتراق من أجل السعادة في هذه الحياة خالية من الظلم والاستغلال والفساد في نغم جماعي وبروح خطابية ولغة تتناسب انسيابيا وتتجاوب معها العاطفة ، مما يجعلنا أمام طابع شعري أصيل وتدفق عاطفي واتحاد الذات بالموضوع فتتشابك الضمائر بين ال (هي) والـ(أنا).

ولقد ربط الناقد الشاب يحيوي الطاهر بين هذه الانتسابية طول النفس " اذا كانت الانسيابية من وجهة أو أخرى دليلا على قدرة الشاعر ... ففن لطول النفس علاقة أكيدة بذلك..."⁴³⁸

فاذا كنا كم شخصا مفردة (خضراء) معادلا للعقيدة الإسلامية فإننا نرى بأنها لا تتناقض مع فكرة الوطن التي تعني الإخلاص والتضحية .

ففكر الولاء للوطن تظهر جلية في معظم دواوين الشاعر كما سبق ون ذكرناه ، وتتجسد من خلال رموز كثيرة ، وعلى الرغم من مشاعر الغماري التي تقوى على الحدود ، وتخترق المسافات فانه يبقى مشدودا إلى الوطن الصغير يعني تاريخه البعيد والقريب .

أهواك يا وطني **** والله تهواه
ترابك العبقري **** يقول رباه
نوفمبر الأخضر **** يا حبنا الأكبر
يا ألف قافية **** من جرحنا تزه
غنى بها الحادي **** وجلجل المنبر
فأخضوض النادي *** في عريس نوفمبر⁴³⁹

436 - مصطفى الغماري ، خضراء تشرق من طهران ، ص 29

437 - مصطفى الغماري ، نقش على ذاكرة الزمن ، ص 26.

438 - الطاهر يحيوي ، البعد الفني والفكري عند الشاعر مصطفى الغماري ، انظر ص 151.

439 - مصطفى الغماري ، اغنيات الورد والنار ، ص 192.

فمفهوم الشعر الإسلامي للوطن والوطنية به يختلف اختلافا جزئيا عن بعض المفاهيم التي ظهرت في عصر الاحتلال ، فهو لا يقدر الوطن لذاته ويعتبره رقعة جغرافية بها بشر لهم عقيدة ورسالة ، فالدفاع عن الوطن مرتبط بالدفاع عن العقيدة ويرى بان أهل الوطن الخالي من هذه الفكرة ليس وطننا

حين يحب الإسلام أهداب ارض

فمحال أن تمطر الأوطان⁴⁴⁰

فالوطن متجسد في العقيدة ، وهي متجسدة في وحب الشاعر ينبع من الفطرة قصد التطلع إلى الأعلى

أهواك يا وطني **** والله تهواه

ترابك العبقري **** يقول رباه⁴⁴¹

والى جامب مفردة حمراء نجد كلمة بيضاء ربما يعني العقيدة الإسلامية نفسها

وعلى (البيضاء) كنا ...

لبيتنا لم نعرف القيد ، وقد كنا ، انعتاقا ...⁴⁴²

ويظل إحساس الشاعر ملتصقا بهذه الفكرة دونما حدود

تغربت عن موطني للهوى

وللحب أعنتيني للوطن

وما وطن العاشقين سوى

فواصل يحضر منها الزمن⁴⁴³

فالشاعر كله أمل وعطاء وحماس ، فهو يدافع عن هذه العقيدة بكل قوة.

وتبقين ، يا أنت ، بعدا مديدا

بحجم الفتوح ، وكبر السماء !

تشيعين في لكل درب ربيعا

وفي كل نفس عبير الإخاء

والظاهر أن كل لفظة من ألفاظ الشاعر تعبر عن الإعجاب بهذه العظمة التي تملأ نفسه ، فلا يملك إزاءها إلا الانهيار ... (يا أنت) .. حجم الفتوح .. كبر السماء .. كل ذلك دلالة على هذا الإعجاب ... فضلا عن كل هذا

440 - مصطفى الغماري ، نقش على ذاكرة الزمن ، ص 27.

441 - مصطفى الغماري ، قراءة في زمن الجهاد ، ص 22.

442 - مصطفى الغماري ، قراءة في آية السيف ، ص 75.

443 - مصطفى الغماري ، قراءة في زمن الجهاد ، ص 41.

...كل درب... كل نفس ، وكل هذه المساحة الواسعة التي نسج بها روح العقيدة ... ربيعا ... وعبير أخوة ...
وربما كانت هذه (العين) المتكررة... (تشجيعين ، ربيع ، عبير) تجسيدا لهذا النوع من الحب والإعجاب .
ثم يلتفت الشاعر الى هذه العقيدة فيجدها ملء الحضور ، ملء كيان الشاعر ، وملء الوجود كله ، تبحر في رحم
الزمن ، وتمد ظلها على رحاب الحاضر والمستقبل .

وأنت ... برغم الجليد ، حضور

وأنت برغم الجفاف ، أزهار⁴⁴⁴

ورغم هذا الجليد فإنها لم تنزل غطاء سخيا أبديا

ولأنت في دمنا حضور مطلق

وغد بأجيال الضحى يخضر صر⁴⁴⁵

ففكرة الحضور المطلق للعقيدة يكتنف فكر الشاعر لأنها ببساطة كيانه.

هي إن جفت مرايا العصر خضراء الظلال

في ليالي الوجد نحيها

وتحيا في البنين

الغد الممتد في أعماقهم حر الجبين ...⁴⁴⁶

ومن الملاحظ ان الشاعر أخذ جل مفرداته من الطبيعة ، وشكلت احد العناصر الأساسية للغة الشعر الشعرية ،
وهذا راجع لارتباطه لهذه الخضرة الدائمة التي تمثلها عقيدته ، وفي هذا إيحاءات رمزية ثرية يعيدنا إلى فطرية
اللغة الأولى وتفانها وارتباطها بالطبيعة (الأم)
وبهذا يتيقن الشاعر استحالة الموت لهذه العقيدة الربانية .

قتلوا ألف مرة صلبوها ألف مرة

احرقوها ألف مرة

زرعوا الشوك على الأعتاب ..

مدو ألف صخرة ...

واستوت، يا كبرها " البدرى " مهرة .

خطرت في هام الشمس

444 - مصطفى الغماري، قراءة في زمن الجهاد ، ص 35.

445 - مصطفى الغماري، خضراء تشرق من طهران ، ص 129.

446 - مصطفى الغماري، قراءة في اية السيف ، ص 60.

وفي كنف الالتحام نجد الشاعر يتساءل بحرارة .. ترى ماذا سيكون لو لم تزر وجودنا هذه العقيدة ؟! كيف سيكون وجه التاريخ ؟ وجه الام التي خلفتها العقيدة ؟ بل وجه الشاعر المحب المتيّم ؟.. فهذه التساؤلات يجيب عنها الشاعر

آه... لولا كرامة **** من هداها اسكر
آه.. لولا نجمة **** في مداها أبحر
لا اعتراني مثلما **** يعتري العقل الجنوب
مبهم يشقى الظمى **** من عناقيد الظنون⁴⁴⁸
ويقول أيضا :

لولاك يا أغنية الحلم الذي
أناني مسافة حبه
أتعمق

في دفنه الصوفي عانيت الهوى
ورأيت وجهك بالمواعد يعبق
يشتاقيه الفقراء ... أنت مداهم

لولاك يا شجر الضحى لم يعشقوا⁴⁴⁹

فلو خضراء ... ما كان شعر ، ولا كان حب .. ولا كان حلم يغنيه الشاعر، ويعاني الهواء في مداه .. فمن يكون المجنون لولا (ليلي) ، ومن سيكون شاعرنا لولا هذه الكرامة التي يسكر في هواها ... ولولا هذه النجمة التي يبحر في مداها ؟ !

بهذا اللغة الصوفية يعبر الشاعر عن مواجهة ، وقد أشرنا الى جانب من هذه اللغة عند الحديث عن علاقة الشاعر بالصوفيين ، أما الآن فتستوقفنا هذه الصورة.

مهما يسقى الظمى **** من عناقيد الظنون

447 - مصطفى الغماري ، قراءة في اية السيف ، ص 60.

448 - مصطفى الغماري ، نقش على ذاكرة الزمن ، ص 66.

449 - مصطفى الغماري ، اغنيات الورد والنار ، ص 192.